

الشعر المحكي في ليبيا (ديوان توحشتك)

للشاعر / محمد علي الدنقلي نموذجاً

الدكتورة: حليلة مصباح الجلاب - قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب - جامعة مصراتة

مقدمة :

الشعر المحكي هو لون شعري في الأدب الشعبي المتطور ، يعد لونا جديدا في الشعر الشعبي. وهو الشعر المنظوم باللهجة العامية أو الدارجة. يقول محمد زغلول سلام: "حيث نطلق لفظة الأدب الشعبي، فإنما نزيد به الأدب الذي يحمل خاصيتين: أولاهما أن يكون بلفظة عامية (ملحونة) أي بلغة عامة الشعب والناس، في أحاديثهم العامة وقضاء حاجاتهم اليومية، وثانيهما أنه يعرض لحياة الناس من عامة الشعب، وخبايا وجداناتهم ومكون مشاعرهم، كما يبين عن اهتماماتهم".⁽¹⁾

يتميز الشعر المحكي بأن لغته هي " اللهجة الشعبية المشتركة التي يفهمها أفراد الشعب أو الجماعة الشعبية أو اللغة الدارجة، أو اللهجة العامية التي ترتبط بفتة أو جماعة شعبية بعينها".⁽²⁾

هذا النظم الفني قد دخله اللحن فجاء بين العامية والفصحى (شعر ملحون)، ودلت مضامينه عن الوجدان الجمعي للشعب وعن أفكاره وتطلعاته وأحواله الاجتماعية والوطنية والقومية بما يتفق مع مفهوم القومية، وقد أطلق عليه الشعر العامي أو القومي، فيقال شعر قومي وشاعر قومي بدلا من (الشعبي).

ويذكر أحمد ضيف في مقدمة كتابه (تاريخ أدب الشعب) أن هذا النوع من الشعر كان معروفا عند المصريين وممن مارس هذا النوع من الزجالين الشاعر والكاتب القومي الشعبي عبدالله النديم، وعثمان جلال، ومحمد النجار وإمام العبد. كما ورد عنده ما قاله ابن خلدون عندما ذكر طائفة عظيمة من الشعر العامي في كلامه على الشعر وذكر أن ذلك كان ذائعا في بلاد المغرب بلهجة المغاربة ولا يعد من الأدب الفصيح، ولكنه أدب قومي أو شعبي عامي.⁽³⁾

⁽¹⁾ الأدب في العصر المملوكي - محمد زغلول سلام - دار المعارف - مصر 1971 - ج 1 - ص 301.

⁽²⁾ مناهج دراسات الأدب الشعبي - أمينة فيزاري - دار الكتاب الحديث - الجزائر - د.ت - ص 15.

⁽³⁾ نقلا عن الشعر المحكي في الشام - زمن الاستعمار الفرنسي - جورج عيسى - منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب - وزارة الثقافة - دمشق 2012 - ص 10.

بدايات الشعر المحكي في ليبيا :

ظهر هذا النوع من الشعر في القطر الليبي على يد مجموعة من الشعراء الذين سموا بـ(المتمردين) على بنية القصيدة الشعبية القديمة وأغراضها، ولغتها في محاولة منهم لابتكار اتجاه جديد في الشعر الشعبي بطريقة عرضه على المتلقي.

ولقد أشار الشاعر (سالم العالم) ⁽¹⁾. الذي يعد أحد رواده - أن لهذا الشعر إرهاباته القديمة المتمثلة في كل من أراد الخروج من عباءة القوالب التقليدية في كتابة الأغاني أو الشعر. ومن رواده: الصيد الرقيعي، محمد الدنقلي. هؤلاء الشعراء - كما يذكر العالم- أنهم حاولوا وضع اللبنة الأولى لهذا الاتجاه من بداية الألفية رغم أن الرقيعي صدر له ديوان عام 1990 م، واتخذت تجربة الدنقلي مسارها في ثمانينيات القرن الماضي، لكن هذه التجارب أخذت تظهر وتعرف طريقها للجمهور عام 2000م من خلال الأمسيات الشعرية التي كانت تقام في عدة محافل محلية وعربية.

يرى الشاعر سالم العالم ⁽²⁾ أن أهم ما يميز الشعر المحكي اعتماده على فن الإلقاء ونبرات الصوت واستخدام الإيحاء من قبل الشاعر. أي أنه يعتمد على التعبير بالحركة أكثر من الكلام ولهذا أطلق عليه تسمية (مسرحية القصيدة). حيث أن بعض الشعراء لديهم دراية بفن المسرح مثل (محمد الدنقلي) فهو ممثل ومخرج مسرحي. وقد أطلق العالم تسمية (الشعر الحركي) على هذا الشعر لأنه عبارة عن توليفة متكاملة متناغمة. ولقد كانت للشعراء العرب تجاربهم الشعرية في هذا الاتجاه مثل أحمد فؤاد نجم وصلاح جاهين بمصر، وحسين حمزة في سوريا، والرحابنة بلبنان، وشعراء الشعر الملحون ببلاد المغرب العربي، واستفاد شعراء القطر الليبي من تجارب هؤلاء فعملوا على إيجاد نص جديد من الشعر يختلف في الشكل والمضمون والإيقاع.

هذا ويعد الشاعر محمد الدنقلي من أبرز الشعراء في مجال الشعر المحكي ، الذي يمكن القول بأنه نوع من الشعر باللهجة الدراجة ، جاء ربما متأثراً بحركة الشعر الحر التي تمرت على القصيدة العمودية .

¹ مقال للشاعر سالم العالم - موقع بلد الطيوب - <http://www.tieob.com/salemalem>

² المرجع السابق نفسه ..

السيرة الذاتية للشاعر:

هو محمد علي الدنقلي، ولد بمدينة زلة⁽¹⁾ عام 1957 م، تحصل على دبلوم معلمين، ولم يتسنى له استكمال دراسته الجامعية في مجال العلوم السياسية، درس الموسيقى بمعهد جمال الدين الميلادي بطرابلس، وعمل في مجال الإعلام، وفي عام 2014م منح العضوية الشرفية لاتحاد الكتاب بتونس. شارك في عدة مهرجانات عربية منها: المهرجان العربي الخامس للزجل بأزمور المملكة المغربية، ولقب (بالزجال) لجماليات شعره.

يعد الدنقلي من أبرز شعراء الشعر المحكي في ليبيا، فهو كاتب، ومخرج مسرحي، ومن مؤلفاته (نثار الليل - أبصر كيف - توحشتك).⁽²⁾

التعريف بالديوان:

يحمل غلاف الديوان عنوان (توحشتك)⁽³⁾ التي تعني باللهجة الليبية (اشتقت لك) وهو من الحجم المتوسط صدر عام 2008م عن اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، يستهله الشاعر بإهداء لقريته الصغيرة (زلة) وقريته الكبيرة (ليبيا) ولكل أبنائه وإخوانه، وأصدقائه، وقرائه، وأخيرا إلى روح أمه، ولولا هؤلاء جميعا لا يعتبر الشاعر نفسه شيئا مذكورا، فلم جميعا يقول (توحشتك).

ويوضح العنوان أن النصوص الشعرية هي (باللهجة المحلية) والتي حدد إبراهيم أنيس مفهومها والفرق بينها وبين (اللغة) بقوله: "اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشارك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع تضم عدة لهجات لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعها في مجموعة الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئة بعضهم ببعض".⁽⁴⁾

تضمن الديوان مجموعة من النصوص تحمل في طياتها ذكريات الطفولة، وحكايا الحب والعشق، للإنسان ولالأرض مثل: للميني - توحشتك - زلة - تغيرتي - ظل النخلة - في العشية

⁽¹⁾ زلة : مدينة تقع في الجنوب الليبي وتشتهر بثمار النخيل ..

⁽²⁾ المعلومات من الشاعر نفسه .

⁽³⁾ ديوان (توحشتك) شعر باللهجة المحكية - محمد علي الدنقلي - منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام - ط1 - 2008م

⁽⁴⁾ في اللهجات العربية - إبراهيم أنيس - الأجلو المصرية - القاهرة - ط 2 - 1990 - ص16.

صلوات - تسلم روحك - دندنة..... وغيرها من النصوص الشعرية التي تشكل لوحات فنية مطرقة بألفاظ جميلة يزداد جمالها عندما تستمع إليها بصوت الشاعر نفسه.

ينقلنا الشاعر محمد الدنقلي بتعايره وصوره الجميلة، وإحساسه المعبر في نص (زلة)- بلدته ومسقط رأسه- وهو يسرد حكاية حياة الطفولة الممزوجة بالبراءة والشقاوة والأمل. في هذا النص نلمس تفاصيل دقيقة لحياة الشاعر المنتمي لهذه المدينة التي تحتضن الصحراء وتقع في حوض الجنوب الليبي، من خلال توظيف الشاعر للتراث الشعبي الليبي (الألعاب والأغاني الشعبية) وصورة الطفل في حلقة الدرس بالمسجد وفلقة (الفيقه) بانتظاره إذا لم يحفظ الدرس. وغيرها من الصور المتتالية واحدة تلو الأخرى في وصف كامل لذكريات مرت في تلك البلدة.

في نص (زلة) قدم له الشاعر لطفي عبداللطيف⁽¹⁾ بقوله: "في نص (زلة) الموجل في ملامسه الشغاف، والمتمكن من كل نبضة في حياة المكان، والزمان والشعور الآدمي الحي. هناك جوق متعدد الأصوات الشادية العازفة في آن.. حبة الرمل لها صوت، وكل جزء من النخلة له صوت، وحركة الخطى، والدمعة، والابتسامة، والنظرة، والظل شمسا وقمرها لها صوت... غير أنك لا تعرف أي الظلال يمسك بالناي، وأي أصابع على القانون، وكم في العيدان من وتر... بل كم في الجوق من رباب، وكمان، وأصناف شبابات... وعندما تنفرد آلة بالتعبير والتصوير، تحسسك بقية الآلات أنها معك تصغى لصوت الحاكي المسيطر بسرده على المقامية والذي يصنع للمعزوفة توافقه... أما الإيقاع فمثبت، وشبه خفي يشد النغم إلى حلقات ودفقات. لكنه يوحى بوجوده مجرد إجماء".⁽²⁾

وندرس في هذا البحث عناصر عدة منها: المكان، وتوظيف التراث الشعبي، والصورة الشعرية، ونعرض للإيقاع الموسيقي.

⁽¹⁾ لطفي عبداللطيف : شاعر ليبي ولد بتونس عام 1942م وعاد إلى ليبيا عام 1960م، عمل في تونس والجزائر، ودرس اللغة الفرنسية والصحافة بفرنسا عام 1970، شغل منصب مدير المركز الثقافي العربي الليبي بتونس، له عدة دواوين منها: الخريف لم يزل، أكواخ الصفيح، قليل من التعري... وغيرها - راجع معجم الشعراء الليبيين - عبدالله مليطان - ج1 - دار مدار للطباعة والنشر - ص425 .

⁽²⁾ ينظر : مقدمة نص (زلة) - ديوان توحشتك - ص35 .

1 ((المكان:

والمكان في نص الدنقلي يحمل دلالات كثيرة فهو "ليس سوى" فضاء وجود وتنفس وحياة الشاعر الذي يلتقط بحساسيته أكثر من غيره. ما يحمله هذا المكان من آمال وآلام، من نشوات وإحباطات، ومن حضور وغياب يؤرقه ويؤلمه، فيولده إبداعاً بلغة خاصة، محملة بصور موقعة ومبهرة في آن".⁽¹⁾

يقول الشاعر في نص (زلة):⁽²⁾

سلام سلام .. يا دمّي ..
 ياسيمائي .. يا وثنمي ..
 دليلي في النَّسَبِ لِكِّي .
 وأهلاً .. ياؤفاة أُمِّي ..
 اللّبي في ارماها بُزِّي ..
 بَعْدَ جِيتِكَ نُصَلِّي لَكَ ..
 مَلاً صَدْرِي عَيبِ مِسْكِ .
 عَمَرُ رُوحِي هُوَ رُوحِي ..
 هُوَ قُدْسِي هُوَ مَكِّي .
 لَتَمَّتْ الأَرْضُ .. وَعَرَفْتُ إِنَّ :
 الوَطْنَ غالي ..
 وم المَحال ..
 يُكُونُ إلاَّ الوَطْنَ كُله
 يُحَلِّبُنِي نُزِيدُ دلال ..
 سَكَّتْ إلاَّ : زعم زلة : غلا .. والأ ..

¹ (الإفتان بالأممكة في مؤلفات عبدالله مليطان - إدريس القرى - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط1 - 2013 - ص7.

² ديوان توحشتك - ص38، 39 .

2)) توظيف التراث الشعبي :

عمل الشاعر على توظيف بعض فنون الأدب الشعبي التي تدل على التراث الشعبي المتوارث عبر الاجيال منها: الألعاب الشعبية التي علقت بالذاكرة الطفولية ، والحكاية الشعبية ، وجاء ذلك متمثلا في نص زلة . (1)

ورغم العناء .. وقلن الدفاء ..

كيف كان يا زلة الليل ؟

يا نلعبوا حلت ما نجل ..

والشاهدة نجمة سهيل ..

يا نقلدوا مشي الحجل ..

يا ندوروا عظمة الحجيل .

يا يا عصاتي دي دي ..

يا يا مطر .. يا يا قنديل ..

ووين حوش بوسعدية ..

عيل وراء، وعيل دليل .

وكمادي كمادي ..

عندي جزو يعادي ..

وجاء توظيفه لاغاني العلم في نص (ظل النخل) حيث يقول : (2)

وهاوين عناوة علم .. انقالت لكم ..

(مشيتوا بشوق العين ..

الله، والنبي .. لا تطولوا) ..

وهاذيك عناوة اخرى .. انقالت حفاء :

(ما من اللي في العقل ..

مردومة، وكامي سرها) .

¹ ديوان توحشتك - ص 42

² ديوان توحشتك - ص 73 .

و(يَكْسَاهَا صَبَابٌ نُحُوسٌ ..
 العين .. وين لَوْهَامَكَ نُجِي) .
 مِنْ وَقْتٍ مَا كُنَّا سَوَا ..
 وَقْتِ الصَّبَاءِ ..

3 ((الصورة والأسلوب :

توعدت استخدامات الشاعر للأسلوب التصويري من استعارة، وتشبيه كما في نص (الملميني)

فيقول: (1)

دلّيني ..

واكتبي - بالورد - في حَدِّ الأفق :

هذه الدُّنيا جميلة ..

وعلمي رُوحِي التَّعَنِي .

(كُلُّ يومٍ، وكُلُّ ليلة) .

وهذهديني بالموسيقى ..

الصَّاخِبَةَ زَيِّ البَحْرِ ..

الهادية زَيِّ الزَّهْرِ ..

العابثة زَيِّ الطُّفُولَةِ .

فصورة الكتابة بالورد ، والهددة بأنغام الموسيقى الصاخبة ، تشبه في قوتها حركة أمواج البحر وتلاطمها ، كما تشبه الزهر في سكونه وهدوئه ، وتشبه الطفولة في فطرتها وعبثها ، وهذه صورة فنية اعتمد الشاعر في رسمها على الاستعارة والتشبيه ، لفظة (زي) وهي لفظة عامية تماثل لفظة (مثل) في العربية ، وكذلك نلحظ الصورة الفنية في نص (ظل النخل) في قوله : (2)

نُتَحَسِّنُ فِي كُفُوفِي ..

بِالْكِي نَلْفَالِكُمْ .. جُرَّةٌ سَلَامٌ قَدِيمٌ

وَنُتَلَمَّسُ وَسَطَ جُوفِي ..

¹ ديوان توحشتك - ص 14 .

² ديوان توحشتك - ص 71 .

بألُكي الصُورة السِمْحَة ..

قَاعِدَة تَحْتِ الرِّدِيمِ ..

وَقْتُ مَا كُنَّا جَمِيعَ ..

وَقْتُ لَاقِينَا الرِّبِيعَ ..

اعتمد الشاعر في رسم لوحته على الصورة الحسية ، خارجية في (جرة سلام قديم) وداخلية في (الصورة السمحة قاعدة تحت الريديم) ، في محاولة لاستعادة اللحظة بكل تفاصيلها وذلك من خلال تكراره للفظه الوقت أكثر من مرة ، والتكرار يوحي بإحساس الشاعر بمتعة الجلسة ولذتها . كما تظهر الاستعارة في نص (السنين) حيث يقول: ⁽¹⁾

لَمَّا السِّنِينَ ..

تَنسَى السِّنِينَ فِي مَحَطَّاتِ السَّفَرِ ..

لَمَّا العُمُرُ .. يَنسَى العُمُرُ .. وَيَمُرُّ .

ننشدوا رياح الخريف :

وين أوراق الشجر؟

وين الربيع، وين الزهر؟

وين الزوابع، والمطر؟

ما بقي في الوقت باقي ..

إلا طعم الوقت مُر .

واللي في الخاطر .. أمر .

فالسنين لا تنسى وكذلك العمر، والرياح لا تسأل، والوقت ليس له طعم، فكل هذه الصور البلاغية لها جمالياتها ودلالاتها في الشعر المحكي كما الشعر الفصيح، وأغلب قصائد الديوان تنوعت الصور البيانية فيها بين الإكثار منها وعدم الإتيان بها .

¹ ديوان توحشتك - ص 129 .

4 ((الإيقاع الموسيقي :

رغم أن نصوص الديوان جاءت باللهجة الدارجة إلا أنها لا تخلو من الإيقاع الموسيقي حيث سبقت الإشارة إليه في تقديم الشاعر لطفي عبداللطيف لنص زلة "أما الإيقاع فمثبت، وشبه خفي يشد النغم إلى حلقات ودفقات، لكنه يوحي بوجوده مجرد إيماء. في طرق خليلي خفيف بين (مستفعلن، متفاعلن) بتفعيلة تتكون من سبب خفيف ووتد مفروق ذلك مثالا في قصيدة (زلة) (زلة زعم / زلا زعم / ولا زلال).⁽¹⁾

يظهر لنا من خلال تتبعنا لنصوص الديوان أن الشاعر اختار لنصوصه إيقاع موسيقي يعتمد البحور الخفيفة التي تقوم على نظام التفعيلة (أي الشعر الحر). فشعراء هذا الاتجاه حاولوا تطوير الشعر الشعبي فكان الشعر المحكي الذي يشبه الشعر الحر في التخلص من النظام القديم. والإيقاع الداخلي تمثل في تكرار الصوت (أي الحرف والجملة) وأيضا تفعيلة كاملة في أغلب نصوص الديوان ليمنحنا جرسا موسيقيا جميلا مؤثرا، حيث كرر الشاعر عنوان أغلب النصوص داخل النصوص نفسها، وقد اجتمع كل ذلك التكرار في نص (توحشتك):⁽²⁾

تُوحَّشْتِكُ .. تُوحَّشْتِكُ .. تُوحَّشْتِكُ ..

ونبي نَقولها ثاني ..

وكل ما قُلْتها مرّة ..

تُطَيِّ حُرقةَ حزاني ..

وبعد .. عَطَّرَها بِاسْمِكُ ..

يَبْتَ نُؤار في لساني ..

تُوحَّشْتِكُ .. تُوحَّشْتِكُ .. تُوحَّشْتِكُ ..

تُوحَّشْتِكُ .. تُوحَّشْتِكُ .. حُداني شوق ..

جَنِّحْ بيْ بَعِيد .. بَعِيد ..

وَحَطَّمني .. علي شَاطي ..

مَعًا مَيِّدةَ الرِّيح .. مَيِّد ..

⁽¹⁾ ديوان توحشتك - ص 35، 36 .

⁽²⁾ المصدر السابق - ص 27، 28 .

سُرِقَ سَمْعِي .. غَنَاءَ بَحَّار ..
 نَسِي رُوحَهُ، وَتَمَّ يُعِيدُ :
 يَلَا .. لَا .. لَا، يَا لَيْلِي ..
 تُؤَحِّثُكَ بِلَا تَحْدِيدِ .

بالنظر إلى هذا النص نجد تكرار لفظة (توحشتك) التي تدل على معنى الشوق والحنين للآخر، أين كان هذا الآخر في نظر الشاعر (قريته – أمه – أصدقائه) بشكل منتظم من ثلاث مرات في نفس السطر إلى مرتين، فواحدة بشكل متناغم منسجم يشبه العزف على آلة موسيقية. ومن ثم فهذا الإيقاع مع تمكن الشاعر بصوته وحركاته يجعل مثل هذه النصوص ذات موسيقى مؤثرة في أذن المتلقي. وهكذا في بقية النصوص التي اعتمد فيها الشاعر على ظاهرة التكرار.

وكذلك لاحظ تكرار حرف (السين، الحاء) في نص (طبيلة1) حيث شكلا نغما موسيقيا يظهر مدى قوتهما حين الإلقاء فيقول الشاعر⁽¹⁾:

عَيُونُكَ مُوشِ وَسَاعِ، وَبَسْ ..
 وَمُوشِ نَعْسِ ..
 عَيُونُكَ مَسْ .. يَلْسَنْ لَسْ ..
 كَيْمَا مَحْنَسِ .. مَحْبَبَا فِي لَيْلِ مَعْسَعَسِ ..
 عَيُونُكَ مُوشِ مَعْبَرِ سَمَاحِ .. لَهْنِ زَرْتَاخِ ..
 وَنَعَشَقْهُنِ فِي كُلِّ صَبَاحِ ..
 اللَّيْلِ عَاجِبِنِي هَالْبَرَاخِ ..
 وَهَالْوَتْسِ .. وَهَاللُونِ اللَّيْلِ مَجَانِسِ .

وكذلك لاحظ الإيقاع الموسيقي في نص (طبيلة2) حيث يقول الشاعر:⁽²⁾

طُولُ اللَّيْلِ نُحُطُّ وَنَمْحَى ..
 رَيْتُكَ لَمَحَّةَ .. طَيْرِي عَقْلِي بِاسْمَحَّةَ ..
 طُولُ اللَّيْلِ نُحُطُّ بَعُودِي ..

⁽¹⁾ المصدر السابق – ص 137.

⁽²⁾ المصدر السابق – ص 157.

لين تُعودي .. ما نُتْرِك دَمعي وشُرودي ..

ياللي كيف هَمَّيل الهُودي ..

عنده جَمْحَة .. وَين يِرْعِي صَيَّاد بُرْمُحه ..

وهكذا فأن توظيف هذه العناصر في الشعر المحكي باللهجة الدارجة له تأثير كبير على المتلقي، فقد عبر الشاعر الشعبي عن الوجدان الجماعي للشعب، وحاكى آلامه وآماله وطموحاته، وهذا النوع من الشعر بدأ يفرض نفسه ضمن المشهد الثقافي الليبي من خلال أمسيات ومشاركات الشعراء الدنقلي وغيره من شعراء هذا الاتجاه محليا وعربيا.

وختاما فإن هذه الورقة ما هي إلا لبنة توضع إلى جانب لبنات أخرى للتعريف بهذا النوع من الشعر الشعبي في ليبيا، كما يفتح المجال أمام الباحثين والأكاديميين لدراسته دراسة فنية تحليلية.

المصادر والمراجع :

أولا / المصادر :

1- ديوان توحشتك (شعر باللهجة المحكية) - محمد علي الدنقلي - منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام - ط1 - 2008م .

ثانيا / المراجع :

- 1- إبراهيم أنيس - في اللهجات العربية - الأنجلو المصرية - القاهرة - ط2 - 1990م.
- 2- أمينة فيزاري - مناهج دراسات الأدب الشعبي - دار الكتاب الحديث - الجزائر - د.ت.
- 3- جورج عيسى - الشعر المحكي في بلاد الشام زمن الاستعمار الفرنسي - منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب - وزارة الثقافة - دمشق 2012 م.
- 4- عبدالله مليطان - معجم الشعراء الليبيين - دار مداد للطباعة والنشر - جزء1 - 2001م
- 5- محمد زغلول سلام - الأدب في العصر المملوكي - دار المعارف - مصر 1971 م.
- 6- موقع بلد الطيوب - [http:// www.tieob.com/author/salemalem](http://www.tieob.com/author/salemalem)